# المفهوم سرقة الفلسفة الكبرى

سعيد الجديد
أستاذ مادة الفلسفة، مدينة كلميم
المغرب

**ملخص الدراسة بالعربية**

جرت العادة داخل الأوساط الفلسفية، الحديث عن المفهوم كملكية خاصة، بل احتقر البعض كل أنماط التفكير الإنساني قبل الفلسفة، لهذا علينا الحفر في تاريخ الفلسفة وعلاقتها بالمفهوم، وكيف دفعها هذا الأخير نحو المأزق الوجودي الذي بحثت عن سبل الخروج منه، كما أن هذا الادعاء بامتلاك المفهوم يقودنا نحو الحفر بعيدا عن موطن الفلسفة (اليونان) كما يزعم هؤلاء، لتبيان دور المفهوم في الفكر الشرقي القديم، والكشف عنه داخل الأسطورة، ولا يستقيم ذلك إلا بربطهما(الأسطورة والفلسفة) بالتفكير العلمي المعاصر، قصد إعادة الاعتبار للفكر الإنساني في شموليته وكونيته.

**الكلمات المفتاحية:** المفهوم، الفلسفة، الأسطورة، العلم

## المفهوم سرقة الفلسفة الكبرى

*"لما لا يسعنا أن نعود إلى ما قبل المفهوم، أن نكتب مباشرة بالحواس، أن نشعر بالتحولات الدقيقة لكل ما نلمس...!"* [1]

### على سبيل التقديم

بحث الإنسان منذ أن مشى على قدمين ليسكن الكهوف، عن حقيقة وجوده وسبب فنائه، فكانت نظرته إلى ذاته وعالمه محكومة بهذا الهاجس، لقد دافع عن حقه في الوجود بشتى الأشكال، بدءا بمقاومة مخاطر الطبيعة وصولا إلى فوضى الحياة الداخلية، وهواجسه النفسية التي كانت تتجلى له في الأحلام بشكل خاص. من هنا انبثق التفكير الإنساني في محاولة للسيطرة على الوجود وتملكه، فأنتج صورا وأصواتا ورموزا تحاكي واقعه، بحثا عن ملاذ آمن يضفي على حياته معنى، فكانت مظاهر التضامن البسيطة بمثابة جواب على ضعف قدراته الجسدية في مملكة الطبيعة.

انطلقت حكاية الفكر الإنساني، لتتخذ مسارات متعددة بتعدد واختلاف تجارب المجموعات البشرية التي انتشرت عبر بقاع هذا الكوكب بحثا عن سبل البقاء، فانطلق عقل الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى مسترشدا بما تجود به حواسه من بيانات، فكانت المقولة المنطقية الأولى التي ستحكم نمط اشتغاله لفترة كبيرة من الزمن هي: "**كل ما يمكن تمثله وتصويره يمكن التحكم فيه**". شكلت هذه المقولة في تلك الحقبة منارة الفكر التي يهتدي إليها لتفسير الظواهر وبناء السلوك، فتأسس على أرضيتها صرح فكري قاد الإنسان البدائي نحو نمط حياة جديد انفصل به عن مملكة الطبيعة واستقل نسبيا عنها. هذه المرحلة الجديدة اتخذت الطوطمية[2] كشكل من أشكال التفكير والعبادة، فالطوطم ليس شيء مجسدا بعينه (ليس حيوانا معينا أو شجرة معينة)، بل هو جوهر الشيء وماهيته، أي أنه يسري على جميع الحيوانات التي تمتلك تلك الماهية، وانطلاقا من هذا التمثل الذي أقامه إنسان تلك المرحلة لهذا الطوطم، يمكن القول بأنه شكل بداية انتقال التفكير الإنساني نحو المفهوم والذي سيلازمه منذ تلك اللحظة. غير أن للفلسفة رأي آخر، فهي تتحدث عن المفهوم كملكية خاصة، لهذا من حقنا أن نتساءل: ألا يشكل المفهوم السرقة الكبرى للفلسفة؟ أليست الفلسفة نتاج المفاهيم التي قادت العقل الإنساني في مغامرته الوجودية منذ أن نقش طوطمه على جدران الكهوف؟

### من الماهية إلى المفهوم

منذ سقراط ترسخت فكرة كون الفلسفة هي البحث عن ماهية الأشياء وحقيقتها، وبالتالي لابد من بلوغ حدود الكلمات التي يوظفها الفيلسوف ليتسنى له فهم عالمه وذاته، وقد مارس أفلاطون هذه العملية على لسان سقراط في محاوراته باحثا عن ماهية المفاهيم، متخذا صيغة السؤال كمنهج لتوليد تلك الماهيات ورسم الحدود (مفهوم التقوى في "أوطيفرون"، مفهوم الفضيلة في "محاورة مينون"، مفهوم المثل في"الجمهورية"،...)، وقد سار على نهجه تلميذه أرسطو، الذي وضع أول قاموس فلسفي ضمن كتابه " الميتافيزيقا" وتحديدا المقالة " الدال" أو "الدلتا"، محاولا حصر ثلاثين مفهوما، ليعمق بذلك التقليد الفلسفي الذي دشنه أستاذه والذي سيحكم على تاريخ الفلسفة كقدر محتوم، وهو حصر وتحديد المفاهيم التي يعتمدها كل فيلسوف كأدوات لممارسة التفلسف، فترسخ لدى الفلاسفة أن فعل التفلسف رهين بنحت مفاهيم جديدة، أو إصباغ مفاهيم قديمة بدلالات ومعاني جديدة، بهدف تقويضها أو تجاوزها، فنجد أنساقا فلسفية بكاملها مؤسسة على مفاهيم، وصارت كالبنيان المرصوص إذا قوض مفهوم هوى سائر البنيان، وإذا انتزعت صارت أنساقا جوفاء. إن استمرارية التقليد الأفلاطوني والأرسطي فيما يتعلق بالمفهوم قد جعل الفلسفة الحديثة حبيسة هذا الهاجس، فحرص كل فيلسوف على نحت مفاهيمه الخاصة ( ليبنتز والموناد، كانط والترنسندنتال، ديكارت والكوجيطو، هيوم والانطباعات، هيجل والروح المطلق،...)، وعندما استيقظت الفلسفة المعاصرة وحاولت تقويض تلك الأسس التي سمتها بالميتافيزيقا، استدارت نحو مظاهر الميتافيزيقا وبقيت تحوم حولها، متوهمة أنها وجدت مسكنها. لقد انطلقوا من اعتبار أفلاطون وأرسطو نقطة بداية تسلل الميتافيزيقا للمتن الفلسفي، إلا أن مسلك البحث لم يتجاوز حدود محاولة إبداع مفاهيم جديدة تصف لنا حقبة ما قبل سقراط لتنتهي بنفس الخلاصات. لأن الميتافيزيقا بالنسبة لهم تشكل نقيض الفلسفة، وهي رؤية حاول العديد

من الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة التأصيل لها والدفاع عنها، وغالبا ما تحكمهم رؤية تمركز ومركزية الذات الاوربية وتفردها كمعجزة يونانية، وهو ما نقرأه بشكل مباشر ودون التواء في كتاب " ما الفلسفة" لمارتن هايدغر : "لأن الفلسفة في جوهرها يونانية، ...لكن ليس فقط موضوع السؤال أي الفلسفة هو اليوناني من حيث أصله، بل كيف نسأل، أي الطريقة التي بها نسأل لا تزال يونانية، حتى الوقت الحاضر"[3]، إن هايدغر هنا ومعه ثلة من الفلاسفة يعبرون عن ذاتية متعالية متوهمين أن أوروبا انفردت بها عن سائر البلدان والشعوب، وربما ذلك ما سيزرع بذور فكرة التفوق العرقي الذي سيمزق أوربا والعالم فيما بعد. لا يتعلق الأمر فقط بهايدغر، بل نقرأ لدى جيل دولوز وفليكس غاتاري ما يفيد نفس الفكرة، وهوكون تفكير الشرق بعيد عن الفلسفة، وأن هذه الأخيرة إبداع العقل اليوناني، ففي كتاب "ما الفلسفة؟"، نجدهما يكتبان " لا يمنع هذا أن تكون الإغريق قد أبدعوا المرحلة الأولى التي يتطور انطلاقا منها كل شيء داخل المفهوم،...، والشرق يجهل المفهوم لأنه اكتفى بوضع الفراغ الأكثر تجريدا، والموجود الأكثر ابتدالا في حالة تعايش دون إقامة أية وساطة بينهما"[4] ، وحتى بعض مفكري وكتاب بلدان الشرق، هناك من يتبنى نفس الفكرة فنقرأ في مقدمة كتاب "ما الفلسفة؟" بقلم مصطفى بلحمر" فقد ولد سؤال" ما الفلسفة؟" يوم ولد التفكير الفلسفي ذاته بمدينة ملطية Milet اليونانية منذ أكثر من عشرين قرنا خلت". وعلى نفس النهج نجد صاحب كتاب "ضحى الإسلام"، محمد أمين يرجع المدينة الحديثة والنهضة الأوربية للفكر اليوناني.

إن هذه النظرة المتعالية التي حكمت الفلسفة، هي التي ستقودها نحو أزمة إبستيمية ستعصف بركائزها وستجعلها تعيد التفكير في ذاتها، ومساءلة تاريخها، وإعادة ترتيب علاقاتها مع باقي الحقول المعرفية الأخرى في معركة الصراع من اجل البقاء.

## من الأزمة إلى المفهوم

يمكن القول بأن كتاب " ما وراء الخير والشر" لفريدريك نيتشه، قد دشن مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الفلسفي، رغم ما مورس عليه من خناق وتضييق، لأنه يعيد التساؤل حول مجمل الفكر الإنساني والفلسفي بشكل خاص، ويقف على تناقضات الفلاسفة وميتافزيقية أنساقهم الفلسفية، ليعيد طرح الأسئلة الكبرى بصيغ جديدة تضع الإرث الفلسفي موضع محاكمة، جنيالوجيته قادته نحو التنقيب عن جذور المفاهيم الفلسفية، باعتبارها ليست ماركة مسجلة بإسم الفلسفة كما ادعى البعض، أو كما حاول البعض بعده أن يرجعها إلى الفلسفة حصرا، وبهذا يؤكد نيتشه أن المفاهيم الفلسفية تعود لأزمنة غابرة وسابقة عن الفلسفة "إن الأفاهيم الفلسفية المفردة ليست شيئا اعتباطيا ونواميا لذاته، بل هي تنمو وترقى بصلة بعضها ببعض وبالقرب. وهي تنتمي، ومهما كان ظهورها في تاريخ الفكر اعتباطيا وفجائيا، إلى سستام واحد...، وبالفعل، قلما يكون فكر الفلاسفة اكتشافا، بل هو بالأحرى إعادة تعرف وتذكر، ورجوع وعودة إلى مؤونة لنفس واحدة أزلية نائية، مؤونة انبثقت منها تلك الأفاهيم في زمن غابر"[5].

أحدث نيتشه شرخا في ذلك النظام، مهاجما العقل ومفاهيمه الصارمة التي أسست للفكر الفلسفي منذ سقراط، لأن تلك المفاهيم والأنساق اقتلعت بقواعدها وضوابطها الصارمة كل أشكال التفكير في الحياة وأفرغتها من عفويتها وشاعريتها وبساطتها.

هذا الانقلاب على قدسية العقل الذي دشنه نيتشه أعاد الاعتبار للجسد وللحياة الواقعية، واستمر مع ماركس ومحاولة تقويض عالم الأفكار الايديولوجي، وربما كانت للعلبة السوداء دور مهم في قلب عالم الأفكار ذلك، فكما كانت العلبة السوداء تقلب الأشياء كانت الأفكار بالنسبة لماركس مقلوبة ومشوهة، كما نضيف فرويد في هذا السياق والعودة إلى المتخيل والاستيهامات والحلم للبحث عن حقيقة الذات

هذا النقد الذي وجه للفلسفة والفلاسفة على حد سواء سيفتح أفق تفكير جديد في تاريخ الفلسفة. فمع الاتجاه التحليلي (خصوصا المشروع الذي تأسست عليه مدرسة كمبريدج والوضعية المنطقية)، ستنضج شروط الحديث عن "أزمة أسس الفلسفة"، على غرار أزمة الأسس التي أصابت الفيزياء والرياضيات. فقدرة العلم على وضع إجابات ملموسة لقضايا البشرية واختراقه لكافة مناحي حياة الإنسان، دفع بالفكر الفلسفي نحو الزاوية الضيقة وأضاق الخناق عليه، ولم يعد قادرا على مسايرة هذه التطورات، بل أصبح أحيانا يجتر قضايا قد حسم العلم بشأنها، إنها أزمة اكتسحت جسد الفلسفة فأصابته بالشلل، لأنها أصابت ما تعتقد الفلسفة أنها تنفرد به، فمع المنعطف اللغوي أصبحت القضايا

الفلسفية في موقع اتهام كبير بكونها قضايا خالية من المعنى وزائفة، لأننا غير قادرين على اختبارها واقعيا، لأنها تعتمد اللغة الطبيعية للبحث عن الماهيات، وبالتالي إسقاط العلمية عليها وإدراجها ضمن خانة الميتافيزيقا، فالتحليلية اتجهت صوب العبارات التي تصاغ فيها المفاهيم الفلسفية بهدف توضيحها وبيان تهافتها محدثة منعطفات أبستمولوجيا ولغوية مست هيكل التفكير الفلسفي. اعتمدت التحليلية نظرية المطابقة في مرحلتها الأولى من خلال اعتبار المفاهيم التي لها وجود ومطابقة للواقع هي المفاهيم الصادقة فقط، والمفاهيم غير الموجودة أو التي لا يمكن اختبارها واقعيا فهي كاذبة ومجرد حشو لغوي تدخل في خانة الميتافيزيقا، بهذا تكون قد دقت مسمارا جديدا في نعش الفلسفة التي بدأت مقولاتها تحتضر أمام أنظار ذويها، أما حلقة فيينا فقد اتخذت معيار المعنى أساس المعرفة، فقسمت القضايا إلى تحليلية مرتبطة بالعلم، وتركيبية مرتبطة بالمنطق، وزائفة كما هو الشأن بالنسبة للفلسفة. لقد خلخلت بنيان الفلسفة، وأحدثت شرخا واضحا في مسار هذا التفكير، فسعت إلى البحث عن أدوات نقدية تفحص بواسطتها الأرضية اللغوية التي نسجت في ثناياها المفاهيم، بعد أن حاصرتها سهام النقد من كل الجوانب، من هنا وجدت الفلسفة نفسها في مأزق وجودي يفرض عليها مساءلة مسلماتها ومنطلقاتها، إذا ما أرادت الصمود في وجه هذه العاصفة. فكيف تعاملت الفلسفة مع أزمتها؟

## كيف تعاملت الفلسفة مع أزمتها؟

حاول الابستمولوجي غاستون غرانجي إخراج الفلسفة من أزمتها، معتمدا المقاربة التحليلية ومستكملا مهامها، فانتقد مبادئ المنطق الصوري الذي وضعه أرسطو وسارت عليه باقي الفلسفات اللاحقة كتقليد لا محيد عنه، وبهذا الصدد انتقد المبدأ الأول المتعلق بالهوية، لأنه المبدأ الذي دفع بالفلاسفة اللاحقين إلى تحديد مفاهيمهم تحديدا دقيقا، معتقدين أن الحد بالماهية هو التعريف الحقيقي كما علمهم معلمهم الأول أرسطو، "[6] لنأخذ مثلا مبدأ الهوية...، فهو يكتسي بالفعل لمن يعتبره قاعدة للتفكير، معنى مضاعفا، معنى ميتافيزيقيا قبل كل شيء،... إذ أن العلامات، بما هي موضوعات مادية، تتغير دائما بدرجات متفاوتة من حالة مصادفة إلى أخرى، ولا تستجيب في حد ذاتها إلى مبدأ الهوية"، وبدحضه لمبدأ الهوية والثبات، انتقل للغة الطبيعية التي تنسج بواسطتها الفلسفة مفاهيمها، لينفي وجود لغة فلسفية خاصة، بل يتعلق الأمر فقط باستعمال فلسفي للغة، وهو استعمال يجعل الفلسفة تدور حول قضايا فارغة من المعنى، فاللغة الطبيعية قد تشكل عائقا إبستمولوجيا بلغة باشلار أمام العلم،" لكن تطور العلم يبين أن التفكر العقلي في الأشياء لا يتقدم إلا مقابل قطيعة، غالبا ما تكون خطيرة وعميقة، مع الأطر المعهودة الخاصة بالإدراك الحسي واللغة"[7].

يكشف تاريخ الفلسفة عن وجود سيل من النقاشات والمشكلات الفلسفية التي لا تمت بصلة للواقع، بسبب الخلط بين المفهوم الفلسفي والعلمي، لهذا نبه غرانجي إلى عدم الخلط بينهما، نظرا لوجود اختلافات بين المفاهيم الفلسفية والمفاهيم العلمية، وإقامة تمييز واضح بينهما، ومدى نجاعة الأولى مقارنة بالثانية ، لأن المفهوم العلمي يقوم على أسس منهجية وموضوعية ويبنى على ضوء ما توفره الملاحظة والتجربة العلمية، في حين تبقى المفاهيم التي اعتمدها التفكير الفلسفي غير دقيقة ولا نملك أدوات تمكننا من ضبط حدود تلك المفاهيم على أرضية تجريبية، وبالتالي ضرورة البحث عن مسكن ومهمة جديدة للفلسفة تستلهم منها مشروعيتها وتنتشلها من أزمتها، هذه المهمة الجديدة تتمثل في مسايرة التطورات العلمية عبر التسلح بسلاحها الكلاسيكي وهو النقد، بمعنى أن مهمة الفلسفة الجديدة هي تحليل ونقد المفاهيم والنظريات العلمية، والاستفادة من تطورات العلم ومسايرته، هكذا يكون للفلسفة مبرر وجودها، هذا الحل الذي قدمه غاستون غرانجي للخروج من الأزمة لن يعجب صاحبا كتاب "ما الفلسفة؟" جيل دولوز وفليكس غواتاري، واللذان سيعيدان طرح السؤال الماهوي الكلاسيكي حول ماهية الفلسفة، وهما بذلك يعيدان إنعاش ذاكرة الفلسفة لتبحث عن مخرج لأزمتها انطلاقا من تاريخها، فحاولا تخليص المفهوم الفلسفي من الابتذال والهجوم، وتمييزه عن باقي المفاهيم التي تعتمدها باقي الحقول المعرفية في بناء معرفتها، وجوابا عن السؤال الماهوي الذي عنونا به كتابهما يقدمان حدا للفلسفة، "هي فن تكوين وإبداع، وصنع المفاهيم "[8]، وبالتالي الحسم في كون المفهوم صناعة فلسفية بامتياز، وتبقى فقط تحديد خصائصه ومميزاته، وبالرجوع لخصائص المفهوم الفلسفي كما حددها الفيلسوفان، فهو يتميز بالتعددية وغير مكتفي بذاته، فلا وجود لمفهوم يحتوي على كل مكوناته، كما أنه يتمفصل ويتقاطع في سيرورة تشكله مع مفاهيم أخرى سبقته، "تترابط المفاهيم ببعضها، وتتوافق فيما بينها، وتنسق

حدودها، وتركب مشكلاتها المتبادلة، وتنتمي إلى الفلسفة عينها، حتى وإن كانت لها تواريخ مختلفة"[9]، مما يعني أن لكل مفهوم تاريخ، ويتم إبداعه على أرضية مسطح محايثة. كما أدلى المفكر المغربي طه عبد الرحمان بدلوه في هذا النقاش من خلال كتابه الموسوم بفقه الفلسفة معتبرا القول الفسفي يقع بين القول العلمي والأدبي لأنه يجمع بين العبارة العلمية والإشارة الأدبية، فهو قول لا تتمحض فيه العبارة ولا تتمحض فيه الإشارة، محددا خصائص المفهوم الفلسفي في خاصيتين هما الانفهام والانتساب، " إن الأصل في المفهوم الفلسفي أن يكون منفهما في صورته اللفظية ومنتسبا في إلى المجال التداولي"[10].

لقد حاول الفيلسوفان إيجاد مخرج للأزمة لكنهما من حيث لا يدريان قد عبرا عن الأزمة بشكل جلي، إنها محاولة يائسة لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار المشترك الإنساني في مختلف أبعاده، وتنظر إلى الفلسفة من نفس الزاوية التي حكمت رؤية من سبقهما، لهذا حمل عنوان الكتاب صيغة السؤال السقراطي الكلاسيكي الفحصي والباحث عن الحد الماهوي، بالرغم من أن الكتاب جاء في أواخر القرن العشرين إلا أنه يحمل بين ثناياه قلقا فلسفيا حول مصير هذا التفكير، وكأن جيل دولوز في آخر كتاب له يضع الأصبع على الجرح الذي تنزف منه الفلسفة، وهو سعي كل فيلسوف لوضع مفاهيم متعالية ومجردة بعيدة عن المعيش والمعطى الموضوعي، بل يتم تكريس رؤية مؤدلجة حول الفلسفة كما يقول جورج بوليتزر: " فمن المعتقد عادة أن دراسة الفلسفة هي شيء كثير الصعوبة بالنسبة للعمال، ويتطلب معارف خاصة، وينبغي الاعتراف أن الطريقة التي صيغت بها الكتب البرجوازية إنما اعتمدت لتثبت في روع العمل هذه الآراء، وتدفعهم إلى مجافاة الفلسفة"[11]. هذه الرؤية المتعالية التي حكمت من يشتغلون في حقل الفلسفة هي التي أفرزت أزمتها، فتحولت إلى حلبة لاستعراض المفاهيم واجترارها، والتغني بقدرات العقل الخالص، وتدنيس باقي الأنماط والمغامرات الفكرية التي تنسجها الذات في علاقتها بذاتها وعالمها. إن قراءة تاريخ الفلسفة يجعلنا نعتقد بأنها انبثقت فجأة ودون سابق إنذار بأرض الأبطال والخارقين، وأن التفلسف الحقيقي هو القطع مع كل أشكال التفكير السابقة، لهذا لازالت الفلسفة تبحث عن مخرج لأزمتها لأنها نسيت أصلها ومهمتها.

### في البدئ كانت الاستعارة

عندما وجد الإنسان البدائي نفسه وحيدا وأعزلا في مملكة الطبيعة، حاول أن يعبر عن هذا القلق الوجودي بطرق شتى، فقادته أحاسيسه وحواسه نحو محاكاة ما يحوم حوله واختزاله في لغة تحكي تجربته ومحنته في الوجود، فصور ونقش تلك الأفكار على الصخور وجدران الكهوف، ومع تطور جهازه العصبي وتعقد علاقاته الاجتماعية ببني جنسه، استطاع أن يطور من أشكاله التواصلية والتعبيرية عبر اللغة التي اختزلت رغباته واندفاعاته وحنينه، فالحروف الأولى ليست مجرد فونيمات معزولة لا تؤدي وظيفتها إلا بالاجتماع فيما بينها، كما يزعم بعض اللسانيين، بل كانت تلك الحروف التي نطق بها الإنسان البدئي بمثابة تعبير عن حالات وجودية، ولعل اللغات القديمة التي أنتجها الإنسان، كانت حروفها بمثابة كلمات ودلالات وجودية، فالحرف الواحد في اللسان البدئي للإنسان يشير إلى فكرة ما، إنه تعبير عن حالة وجودية ما، " يقف حرف الزاي في لسان البدايات على طرفي نقيض مع حرف قرين له في النطق، ولكنه بعيد عنه في المدلول، ألا وهو السين. فإذا كان الحرف الأخير قد ارتحل عبر لغات العالم لتأدية رسالة الجوهر، أو كل ما له صلة بالباطن...فإن حرف الزاي قد اختار أن يسلك سبيل المظهر في رحلة العرفان من خلال حمولته الدلالية ككيان" أو "كينونة"[12].

كان الصوت أداة للتواصل بين الأفراد، ولأنه لحظي فقد كانت حياة الإنسان مرتبطة بهذا المعطى، فحاول التغلب على هذه المعضلة بالحكي والسرد للمحكيات الكبرى المؤسسة لروح الجماعة، وتنقل إرث وروح تلك الجماعة من الأجداد إلى الأحفاد، ولأن السرد هو العنصر الوحيد الذي يقاوم به إنسان تلك المرحلة النسيان والموت، فقد أحاطه بالهالة والتقديس، وفي سيرورة صراعه ضد هذا الشبح المخيف، حاول باستمرار اختراع طريقة تمكنه من حفظ ذاكرته من التلاشي بعد الموت، وقد اهتدى بفعل خوفه من الموت إلى رسم ونقش صور الحيوانات وأشكال الصيد وأماكنها، على أمل اتقاء شر بعضها والتقرب من بعضها، وجعل تلك الأماكن تهب صيدها لمن ينقشها على الصخر.

ولدت قصة الكتابة من رحم الخوف من الموت والنسيان، وبالرغم من أنها ولدت بين الصخور وداخل الكهوف إلا أنها استطاعت السفر والنمو من مكان إلى مكان، ومن جماعة إلى جماعة، ظهرت أول مرة حسب ما تفيده الأدلة الأثرية المتوفرة على اللغة التصويرية، أي استخدام صورة ورسوم لكتابة ما يرغبون أو التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم بالرسوم، وتعتبر هذه الكتبة كتابة رمزية لأنها تعتمد الرموز والرسوم لإبلاغ المعنى، وبهذا انتقل الانسان من النطق إلى الكتابة وبانتقاله هذا، تغيرت طريقة تمثله للعالم وتغيرت أشكال التعبير عنه حسب ما توفره تلك الكتابة، لأننا تعرفنا على فكر الانسان القديم ليس بالأصوات بل بالكتابة، ولأن الكتابة في بداياتها كانت محدودة مقارنة بالأصوات، فهذا طبعا سيؤثر على فهمنا لنظرة هذا الانسان للعالم.

بدأ الانسان لغته بالاستعارة، فهي شكل من أشكال الحياة، لقد استعمل الانسان منذ بداياته الاستعارة كطريقة لفهم الوجود ونقله للآخرين، فأقدم الكتابات التي توفرت لدينا لحد الساعة تشير إلى كون الاستعارة الطريقة الرئيسية التي كان الانسان يعبر بها عن مخاوفه وآلامه، فملحمة جلجاميش وأشعار هوميروس وأنساب آلهة هيرودوت، وملاحم الهند القديمة والكتابات المنقوشة على الأهرامات، كلها كتبت بشكل استعاري. انبثقت الاستعارة من رغبة الاسنان في معانقة الوجود، رغبته في الكشف عن حقيقته، لهذا كان يحاول ربط ما يعيشه جسده بما يجهله، فأضفى صفات وحياة على كل ما يجهله، وكانت وسيلته في ذلك الاستعارة، ومنه انبثق المفهوم كأداة حية يطوع بها الاسنان هذا الوجود، لعبت الاستعارة دورا محوريا في تاريخ الانسان، فبفضلها نسجت مخيلة الانسان طموحاته، وبفضلها قاوم وتغلب على رهبة الموت.

إن قراءة الذاكرة الجمعية للشعوب القديمة توحي بوجود مفاهيم تخترق المتن الأسطوري الذي نسجته مخيلتهم، وتدفعنا لاستجلاء معالم التفكير كما سطرته مغامرة العقل الأولى بعيدا عن النظرة الدونية والسطحية لأساطير الشرق القديمة، كما تعيد التساؤل حول المفاهيم التي شكلها الفكر الأوربي وجعلها منطلق مركزيته أو معجزته. لقد سوقوا لمقولة اللوغوس كمنتوج يوناني محض في مقابل أساطير وخرافات الشرق، وحتى الفهم الذي تشكل لدينا بفعل من اشتغلوا في مجال الأسطورة وجعلها في مقابل الفكر الفلسفي، يخفي الكثير من التحامل على هذا المنتوج الفكري الذي يختزن ذاكرة الشعوب، ويؤرخ لعبقرية إنسانية لولاها لما انبثقت نواميس الحضارة من أساسها، ولنقف عند بعض الأمثلة لنوضح ذلك أكثر:

### 1- ملحمة الخلق البابلية"الإينوما إليش"[13]

" عندما في الأعالي لم يكن هناك سماء،

وفي الأسفل لم يكن هناك أرض.

لم يكن (من الآلهة) سوى أبسو أبوهم،

ومو، وتعامة التي حملت بهم جميعا.

يمزجون أمواههم معا."[14]

تشكل قراء هذه الأبيات والتمعن فيها فرصة للكشف عن فكر لا يقل أهمية عن فكر اليونان وإن جاء قبلهم بزمن طويل، فهي تحمل بين طياتها ملامح المفهوم وبدايات التفكير الفلسفي، بل هذا الجواب عن سؤال المبدأ الأول يتجاوز في عمقه الفلسفي جواب بعض الفلاسفة الطبيعيين، فهي تحدد انبثاق الوجود من شكل مادي سابق أي أنه ليس نتاج عدم، كما أن بداية الوجود هنا كانت نتاج تناقض وصراع بين نقيضين، بمعنى أن الوجود انبثق من وحدة تحمل داخلها عنصرين متناقضين( أبسو هو الماء العذب، تعامة كانت الماء المالح ومو فيعتقد أنه الأمواج المتلاطمة الناشئة عن المياه الأولى)، وهذا التناقض هو ما سيحكم سيرورة الوجود وتشكلاته فيما بعد، بل قد نلاحظ هنا نشوء الحركة المتمثلة في الأمواج نتيجة وجود نقيضين، وهي فكرة متقدمة حتى عن بعض الأفكار الفلسفية.

## 2- ملحمة جلجامش السومرية[15]

" أنصتوا إلي يا شيوخ أوروك، اسمعوني.

إنني أبكي صديقي أنكيدو،

أبكي بحرقة النساء الندابات.

كان البلطة غلى جانبي، والقوس في يدي،

المدية في حزامي، والترس الذي أمامي،

حلة عيدي، فرحي الوحيد.

حتى سرقني عدو شيطاني.

يا صديقي، يا أخي الصغير.

يا من سابق حمار الوحش البراري وفهد الفلاة.

لقد ذللنا معا الصعاب وارتقينا الجبال.

امسكنا بثور السماء وقضينا عليه.

صرعنا خمبابا ساكن غابة الأرز.

فأي نوم هبط عليك،

فغبت في ظلام لاتسمع كلماتي "[16]

تعد ملحمة جلجامش تحفة فنية وأدبية بامتياز، فهي تجسد عمق مخيلة الإنسان السومري والبابلي على حد سواء، فبالإضافة إلى كونها تقدم لنا ملامح نظام المدينة وآليات التشاور وممارسة الديمقراطية(عكس ما تسوقه كتب أصحاب المركزية الأوربية التي تعتبر نظام المدينة وديمقراطيتها نتاج أثيني بامتياز)، فالأبيات التي عرضناها تطرح مفهوم الصداقة بشكل عميق، وتؤكد على أهميتها والتضحية في سبيلها باعتبارها غاية في ذاتها وليست وسيلة، كما أن باقي أبيات الملحمة تطرح سؤال الموت، ودور الإنسان في الوجود بشكل يعيد الاعتبار للحياة وصبغها بقيم الخير.

## 3- الفكر الهندي القديم

استطاع الهنود عبر كتب الفيدا أن يؤسسوا لنظام فكري احتوى كل مقاييس الفكر الفلسفي، بدءا بطرحهم لسؤال المبدأ الأول والذي أرجعوه لقوة لا يمكن وصفها لأنها تتجاوز كل التحديدات وتخترق كل مناحي الوجود كنفس كلية تسكن كل الموجودات، وهم بذلك يؤسسون لفكرة وحدة الوجود، والتي سيستنسخها بعض الفلاسفة عنهم، بل تجاوزوا سؤال الوجود نحو سؤال الموجود والتساؤل عن ماهية الذات وجوهرها، كما أنهم وضعوا المعرفة والتأمل النظري على رأس المهام التي يجب القيام بها باعتبارها مهام تسمو بالإنسان وتحرره من سجن الحياة المتكررة، "فأهم شيء يجب أن يطمح المرء إليه هو اكتساب معرفةِ طبيعة ذاته الجوهرية أو روحه، التي تُسمى **أتمان** باللغة السنسكريتية، وتقول نصوص

الأوبانيشاد إن الذات والكون شيء واحد، وتقول على نحو متكرر إن **أتمان** المرء لا تنفصل عن كل الموجودات. ويُعرف ذلك على نحو مشهور بهذه الجملة: تات تفام أسي، وتعني أنت كل ذلك"[17]

"في البداية، كان هذا الكون مجرد وجود واحد فقط دون ثان. وصحيح أن بعض الناس يقولون إنه في البداية كان هذا العالم مجرد لا وجود – واحد فقط دون ثان – ومن اللاوجود ظهر الوجود. لكن كيف يمكن أن يكون هذا هو واقع الأمر؟ كيف يمكن أن يأتي الوجود من اللاوجود؟ على النقيض من ذلك، في البداية، كان هذا العالم مجرد وجود — واحد فقط دون ثان"[18].

يظهر من خلال هذين المقتطفين من أهم كتب الهند القديمة ونقصد كتاب "الأوبانيشاد"، مدى البراعة الفكرية في طرح إشكالية الوجود واللاوجود، والتأسيس لفكرة أزلية الوجود باعتباره ثابتا، أطلقوا عليه مفهوم "البراهمان"، وجعلوه متوحدا ومتعالقا مع مفهوم الأتمان(النفس) إلى درجة الإندماج والانصهار.

إن المفاهيم التي أبدعها إنسان العصر الفيدي توحي بعمق فكري ونظرة شموليه لمفهوم الوجود، أما في ملحمة " المهابهاراتا"، فستستوقفنا مفاهيم الواجب والإرادة والحرية مصاغة بشكل لا يقل أهمية بالشكل الذي صاغتها بها فلسفة ما بعد سقراط، فلنتأمل قليلا هذا القول:

"لي ذات. ليس لي ذات.أنا أدرك ذاتي من خلال ذاتي. أنا أدرك عدم وجود ذات من خلال ذاتي. أدرك ذاتي من خلال عدمية ذاتي. ذاتي هذه التي تتحدث وتشعر، والتي تشهد عواقب الأفعال الجيدة والسيئة، أحيانًا هنا وأحيانًا هناك، هذه الذات دائمةٌ ومستقرة وأبديَّة وغير متغيرة، وهي كما هي دائما."[19]

إن قراءة هذا النص البوذي القديم يجعلك تعتقد أنك في حضرة الفلسفة الحديثة أو المعاصرة، فقد نسج مفهوم الهوية بشكل رائع ليعبر عن وحدتها وتطابقها مع ذاتها وتحمل مسؤولية أفعالها.

وأخيرا نستحضر خاتمة الريك فيدا في أنشودة الوحدة والتي جاءت بالصيغة التالية:

"لتكن نواياكم متوحدة.

لتكن مشاعركم متناغمة.

ليكن فكركم متأملا.

كما كل وجوه الكون المختلفة، كائنة هي في الأحدية، الكل."[20]

فهل مازلت تعتقد أن المفهوم إبداع فلسفي خالص؟

وهل تعتقد أن الفلسفة منتوج يوناني خالص؟

## 4– الفكر الصيني القديم

أبدع الإنسان الصيني القديم مفاهيمه التي حاول من خلالها الإمساك بالوجود وجعله مفهوما ومعقولا، فصنع مفهومي **اليين واليانغ**، كما يصورها كتاب التغيرات، فهما بمثابة طاقتين متناقضتين، حيث يرمز **اليين** إلى الطاقة السلبية أي الطاقة الانثوية، بينما يرمز **اليانغ** إلى الطاقة الذكورية أي الموجبة. هاتين الطاقتين تحتاجان لبعضهما البعض، فلا تتواجد إحداهما دون الأخرى. والجدير بالذكر أن هاتين القوتين يتم تمثيلهما على شكل دائرة كما هو مبين في الشكل أسفله.

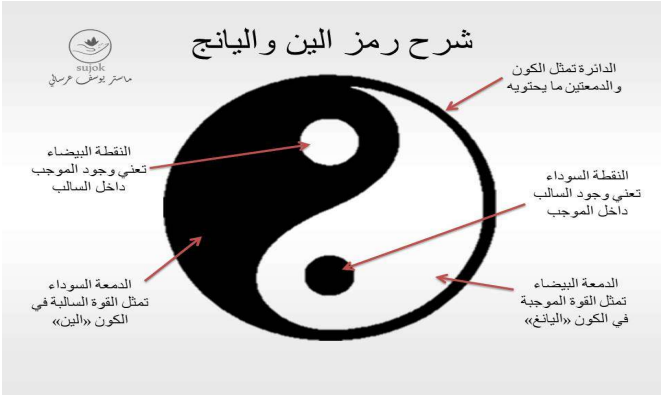


الصورة مأخوذة من موقع

https://www.afaqbio.com

لعل إلقاء نظرة على الكيفية التي صاغ بها الإنسان الصيني هذه الفكرة ونظرته للوجود باعتباره وحدة تتشكل وتتطور وفق صراع بين الضدين، وأن كل قوة تحمل بين أحشائها نقيضها الذي يدفعها للحركة، تنم بدورها عن وعي فكري لا يقل أهمية عن الأفكار التي صاغها الفلاسفة اليونان.

نستحضر هنا كتاب التغيرات الصيني " إيجنغ"[21] باعتباره يشكل المرجع والأساس الذي انطلق منه قطبي الفلسفة الصينية، ونقصد الكونفوشوسية والتاوية. أدخل مفهوم الحركة والتغير، باعتباره مفهوما يخترق الوجود ويحكم سيرورته وفق نظام من التقابل والأضداد، فغياب الحركة لا يؤدي إلى الموت، لأن هذا الأخير ليس نقيض الحياة، بل هو وجه آخر من أوجه الحياة فقط، كذلك نظر الصينيون إلى السكون باعتباره ليس نقيض الحركة بل جزء من الحركة يتفاعل معها. كما أن التغير يحدث على أرضية ثابتة حتى لا تحل الفوضى في الكون وهذا الثابت سمي بالتاو،" الوحدة الكامنة خلف الكثرة المتبدية"[22]

كما أن كتاب التغيرات عالج مفهوم الرغبة وربطها بالإرادة، فتحقيق رغباتنا ودوافعنا رهين بقدرتنا على استخدام أمثل للموارد التي نمتلكها، وذلك بإدراكه لمفهوم التغير ووظيفته في الوجود.

## خلاصة

يتضح مما سبق أن التفكير بالمفهوم ليس وليد التفكير الفلسفي، بل هو نمط شكل جوهر الفكر الإنساني، فبفضل هذا المنهج في التفكير انفصل عن مملكة الطبيعة، وبدأ يبني أنساقه الفكرية المستقلة عن العالم المادي، لقد شكل المفهوم أساس التفكير الأسطوري، وبه تسلح في مغامرته الفكرية، ليدفع بالكون نحو الكشف عن أسراره، ونحن بهذا لا نبتغي سوى إعادة الاعتبار للفكر الإنساني في مجمله وعبر تمفصلاته وتقاطعاته التي اخترقت الزمان وكسرت حدود المكان، فإذا كانت الأسطورة قد نقلت الإنسان بالمفاهيم نحو تجريد وتنظيم تصوره للوجود، فإن الفلسفة بدورها اعتمدت على المفهوم لتنظيم تصورها للوجود والموجود، كما أن العلم اليوم يبنى على أرضية المفهوم محاولا تنظيم هذا الوجود وفق نسق مفهومي محدد، والجدير بالذكر بأن أساطير الإنسان البدائي تتقاطع كثيرا مع الأنساق العلمية المعاصرة، وذلك باعتمادهما معا على عنصر الخيال، وهو ما يؤكد تلك الرابطة الفكرية للإنسان منذ أن سنن الحجر كامتداد للجسم إلى اليوم، وبالتالي لا داعي للانتقاص من أية مرحلة تاريخية أو فكرية لأسلافنا الأوائل، لأنهم يعيشون وسط ضجيج أفكارنا، ومتخفين داخل أعتى الأنساق والنظريات العلمية المعاصرة.

**الهوامش:**

1 إميل سيوران، مثالب الولادة، ترجمة آدم فتحي، منشورات الجمل، بغداد-بيروت،2015 ، ص 38

2 فالطوطم كما عرفه فريزر في كتابه "الطوطمية والزواج" يمثل مجموعة من الأشياء المادية التي يحترمها البدائيون ويعتقدون بوجود علاقة خاصة لهم بتلك الأشياء

3 مارتن هايدغر، ما الفلسفة؟ ترجمة محمد كامل عبد العزيز ومحمود رجب السيد، مراجعة عبد الرحمان بدوي، دار النهضة العربية 1964، ص "37/36

4 جيل دولوز وفليكس غواتاري، ماهي الفلسفة؟، ترجمة مطاع صفدي وفريق مركز الإنماء القومي ص 107

5 كتاب ما وراء الخير والشر، فريدريك نيتشه، ترجمة جيزيلا فالور حجار، مراجعة موسى وهبة، دار الفارابي، الطبعة الأولى 2003، ص 45/44

6 جيل غاستون غرانجي، كتاب العقل، تعريب محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر، الطبعة الأولى 2004، ص 62/61

7 غاستون غرانجي، نفس المرجع ص 70

8 جيل دولوز وفليكس غواتاري، ماهي الفلسفة؟، ترجمة مطاع صفدي وفريق مركز الإنماء القومي، ص 28

9 نفس المرجع ص 41

10 طه عبد الرحمان، فقه الفلسفة 2 القول الفلسفي، كتاب المفهوم والتأثيل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية 2005، ص 121

11 جورج بوليتزر، كتاب مبادئ أولية في الفلسفة، تعريب فهمية شرف الدين، مراجعة موسى وهبة، دار الفرابي، الطبعة الخامسة 2001، ص 22

12 ابراهيم الكوني، ملحمة المفاهيم الجزء 3 الطبعة الأولى 2006، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ص 9

13 تتألف هذه القصيدة من حوالي 100 سطر كتبت مابين الألف الثاني والأول قبل الميلاد وتشكل أسطورة الخلق البابلية التي نسختها الحضارة البابلية عن السومرية مع تغيير في بعض الأسماء وجعل الإله البابلي مردوخ هو بطل القصة بدل إنليل السومري ، كما أن هذه الملحمة كانت تجسد في احتفالات عيد رأس السنة البابلي "الأكيتو".

14 مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، الطبعة الحادية عشر، دار الكلمة، ص 56

15 بمثابة عمل فني وفكري أبدعها الإنسان السومري حوالي 2700و 2300 قبل الميلاد، وتحكي قصة الملك جلجامش الذي عاش في مدينة أوروك «الوركاء» الواقعة في وادي الرافدين على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وقد تناقلها الأكاديون والبابليون فيما بينهم.

16 قراءة في ملحمة جلجامش، فراس السواح،الطبعة الأولى 1987، ص 172

17 الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جدا، سو هاميلتون، ترجمة صفية مختار، مؤسسة هنداوي،2016 ص 38

18 الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جدا، سو هاميلتون، ترجمة صفية مختار، مؤسسة هنداوي،2016 ص 38

19 الفلسفة الهندية مقدمة قصيرة جدا، سو هاميلتون، ترجمة صفية مختار،مؤسسة هنداوي،2016 ص 48

20 د لويس صليبا، أقدم كتاب في العالم ريك فيدا، الطبعة الثانية 2007، دار ومكتبة بيبليون ختام ريك فيدا، ص 490

21 هو أقدم كتاب بالصين، تعزى صياغته لفو هسي حوالي 3500 قبل الميلاد، أما جمعه فيرجع إلى وو وانغ المتوفي 1064 قبل الميلاد

22 التاو تي تشينغ، إنجيل الحكمة التاوية، ترجمة وشرح وتعليق فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة الأولى 1998 ، ص 18